

أهوال القيامة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فاتقوا الله - عباد الله - حقَّ التقوى، وراقبوه في السرِّ والتَّجوى.

أيها المسلمون:

النَّاس في هذه الحياة في غفلة، وأملهم فيها عريض، ولا بد من إجمام النفس بتذكيرها بمصيرها لِتَعْمُرَ الآخرةَ بالدنيا، وَيُعْتَنَمَ الحاضرُ للمستقبل، وقد جعل الله اليقين باليوم الآخر من أركان الإيمان، وسيأتي اليوم الذي يفنى فيه الخلق مصداقاً لقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرَّحْمَن: الآية ٢٦]، ثم يأتي يوم يعيد الله فيه العباد ويبعثهم من قبورهم، وأول من يبعث وتنشق عنه الأرض نبينا محمداً ﷺ، ويحشر العباد حفاة عراة غرلاً غير مختونين: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٤]، ويكسى العباد، وأول من يكسى إبراهيم ﷺ، ويكسى الصالحون ثياباً كريمة، والطالحون يسربلون القطران نحاساً مذاباً ودروعاً من جرب، ويحشر الخلق على أرضٍ محشرٍ غيرِ هذه قالت عائشة رضي الله عنها: «فأين يكون الناس

يا رسول الله؟ قال: «على الصراط» (رواه مسلم). وفي لفظ «هم في الظلمة دون الجسر».

وأرض الحشر أرض بيضاء عفراء ليس فيها معلم لأحد، لم يسفك عليها دم حرام ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر ويُسْمَعُهُم الداعي، يوم عبوس قمطير قال عنه الكافرون: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: الآية ٨]، لا يلاقي العباد يوماً مثله، وصفه الله بالثقل والعسر، يشيب منه شعر الوليد، ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [المدثر: الآية ٩]، تذهل المرضعة عن رضيعها، والحامل تسقط حملها.

يوم تدهش فيه العقول وتغيب الأذهان، يفر الإنسان من أحب الناس إليه من أمه وأبيه وأخيه وزوجته وأولاده، ويود العاصي أن يدفع بأغلى الناس إليه في النار لينجو: ﴿يَبْصُرُونَهُ يَوْمَ الْمَجْزَمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ﴾ (١١) ﴿وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ (١٢) ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّبُهَا﴾ (١٣) ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ [المعارج: الآيات ١١ - ١٤].

والأرض تزلزل وتدك دكة واحدة، وتمد مد الأديم، وتبقى صعيداً واحداً لا اعوجاج فيها ولا روابي، يقبضها الله ويمسكها بأصبع، والجبال تُسَيَّرُ وتنسف وتتفتت وتتحول إلى كثيب من الرمل مهيل، وكعهن من الصوف منفوش، يخيل للناظر أنها شيء وهي سراب ليس بشيء، ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: الآية ٢٠]، وتزال الجبال عن موضعها وتسوى الأرض فلا ارتفاع فيها ولا انخفاض لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً، والبحار تفجر وتسجر وتشتعل ناراً.

والسما تنشق وتمور وتضطرب فتصبح ضعيفة واهية، وتأخذ السماء في التلون: ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: الآية ٣٧]، وتكشط السماء فلا ستر حيثئذٍ ولا خفاء، ويطويها ربنا بيمينه كطي السجل للكتاب، ويمسكها على أصبع، والشمس تكور وتجمع ويذهب ضوءها

والقمر يَخْسِفُ: ﴿فَإِذَا بَرَقَ أَبْصَرُ﴾ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ ﴿٩﴾ [القيامة: الآيات ٧ - ٩]، والنجوم الزواهر تنكدر وينفرط عقدها فتتناثر وتُظلم الأرض بخمود سراجها وزوال أنوارها، والعشار تعطل، والوحوش تحشر، ويموج الخلق بعضهم إلى بعض، من رأى الناس في ظن أنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، الأبصار شاخصة، والقلوب لدى الحناجر واجفة، والملائكة آخذة مصافها بالخلائق محدقة، أمر عظيم وطارق مفضع، يقول النبي عليه الصلوة والسلام: «اللهم إني أعوذ بك من ضيق المقام يوم القيامة» (رواه النسائي).

في هذا اليوم تعلم كل نفس ما أحضرت، يقف الإنسان نادماً بعد فوات الأوان، وتؤخذ خوافي الصدور أخذاً شديداً ويبعث ما فيها، فما من شيء أخفي فيها إلا ظهر، وما أسر إلا أعلن، صمت مهيب لا يتخلله حديث ولا يقطعه اعتذار: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ (٣٥) وَلَا يُؤَدِّنُ لَهُمْ فِعْعِنْدِرُونَ ﴿٣٦﴾ [المرسلات: الآيتان ٣٥، ٣٦]، وجوه هناك مبيضة مسفرة مستبشرة، ضاحكة ناضرة، ووجوه أخرى مسودة باسرة، عليها غبرة، مرهقة بالقترة، المتقون يحشرون إلى ربهم وفداً، والمجرمون يساقون يومئذ زرقاً، والشمس تدنو من رؤوس الخلائق حتى لا يكون بينها وبينهم إلا قدر ميل، ولا ظل لأحد إلا ظل عرش الرحمن، فمن بين مستظل بظل العرش وبين مضحو بحر الشمس، والأمم تزدحم وتتدافع فتختلف الأقدام وتنقطع الأعناق، فيفيض العرق إلى سبعين ذراعاً في الأرض ويستنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على مراتبهم، منهم من يصل إلى الكعبين، ومنهم من يلجمه إجماماً فيطبق الغم وتضيق النفس، وتجتثو الأمم من الهول على الركب، وترى كل أمة جاثية يقول النبي ﷺ: «يبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون» (متفق عليه).

ويندم العصاة ويتحسرون على تفریطهم في الطاعة، ولشدة حسرتهم يعضون على أيديهم يقول عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ

يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٢٧﴾ [الفرقان: الآية ٢٧]، ويمقت العاصي نفسه وأحبابه وخلانه وتقلب كلُّ محبة لم تقم على أساس من الدين إلى عداء، ويخاصم المرء أعضاءه، والمتكبرون يحشرون أمثال الذر يطوهم الناس بأقدامهم احتقاراً لهم، والمسبل إزاره لا يكلمه الله في ذلك اليوم ولا ينظر إليه ولا يزكّيه وله عذاب أليم، وتوضع لكل غادر يوم القيامة راية عند مؤخرته ويقال: هذه غدره فلان بن فلان، ومن أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أراضين، ويتضاعف يوم القيامة ظلم الدنيا «الظلم ظلمات يوم القيامة»، والحقوق لا تضيع بل يقتصص حق المظلوم من الظالم حتى يقاد فيما بين البهائم.

وشر الناس يومئذ ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، وَمَنْ نَفْسٍ عَنْ مَوْءِنٍ كَرِبَةٍ مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا نَفْسٌ اللَّهُ عَنْهُ كَرْبَةٌ مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرْ عَلَى مَعْسَرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

والعادلون على منابر من نور عن يمين الرحمن، ويبعث كل عبد على ما مات عليه، فمن مات محرماً بعث ملبياً، ومن كُلم في سبيل الله جاء لونه لون الدم والريح ريح المسك، والمؤذنون أطول الناس أعناقاً ولا يسمع مدى صوته شيء إلا شهد له يوم القيامة، ومن شاب شيبه في الإسلام كانت له نوراً، وكل امريء في ظل صدقته حتى يفصل بين الناس.

والصراط دحض مزلة فناج عليه ومخدوش ومكدوس في النار، والميزان بالقسط لا اختلال فيه، الحساب فيه بمثاقيل الذر: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧]، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: الآيتان ٧، ٨]، الحمد لله تملؤه، وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ثقيلتان فيه، وسئل عليه الصلاة والسلام عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق» (رواه الترمذي). والصحف المطوية تنشر،

كم من بلية نسيتها؟! وكم من سيئة أخفيتها؟! والكتاب يقرأ، والجوارح تنطق، والملائكة حاضرة، والله شهيد على جميع الأعمال يقول تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: الآية ٦١].

وبعد أن يفرغ الله من الفصل بين البهائم يشرع في الفصل بين العباد، وأول الأمم يقضى بينها هذه الأمة، وهم أول من يجوز على الصراط، وأول من يدخل الجنة يقول النبي ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة» وفي رواية «المقضي لهم قبل الخلائق» (رواه مسلم)، ويكرم الله عبده محمداً ﷺ في الموقف العظيم بإعطائه حوضاً واسعاً الأرجاء مسيرته شهر وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من المسك، ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، ويرد عليه أقوام من أمته ثم يحال بينهم فيقول عليه الصلاة والسلام: «إنهم مني فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فيقول: سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي» (متفق عليه).

إن النجاة من تلك الأهوال إنما تنال برحمة الله ثم بعمل صالح، والمقصر نادم لا محالة في يوم لا تنفع فيه المعذرة، ولا يرتجى فيه إلا المغفرة، والحياة طالت بك أم قصرت فمصيرك إما إلى جنة أو نار.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: الآية ٥].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشُّكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ.

أما بعد: أيها المسلمون:

المفلس يوم القيامة من يأتي بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم يقذف في النار، يقول صالح المري - رحمه الله -: «دخلت المقابر نصف النهار فنظرت إلى القبور كأنهم قوم صموت فقلت: سبحان من يحييكم وينشركم من بعد طول البلى، فهتف بي هاتف من بعض تلك الحفر يا صالح: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿[الروم: الآية ٢٥] قال: فخررت مغشياً عليّ».

يقول الحسن البصري - رحمه الله -: «يومان وليلتان لم يسمع الخلائق بمثلهن قط، ليلة تبیت مع أهل القبور ولم تبت قبلها مثلها، وليلة صبيحتها تسفر عن يوم القيامة، ويوم يأتيك البشير من الله إما بالجنة وإما بالنار، ويوم تعطى كتابك إما بيمينك وإما بشمالك».

ثم اعلموا أن الله أمركم بالصلاة والسلام على نبيه . . .